الواقعة بين ١٩٠٤ و ١٩٢٢ ظهرت في فلسطين حوالي ٥٠ صحيفة عربية ، وقبل انفجار ثورة ١٩٣٦ اضيفت عشر صحف اخرى على الاقل ، كان رواجها واسعا .

ان عوامل كثيرة ، ليس هنا مجال التوسع فيها ، قد جعلت من فلسطين مركزا ثقافيا عربيا مهما ، وكانت الحركة الدائبة للمثقفين المهاجرين من والى فلسطين عاملا اساسيا في ترسيخ الدور الثقافي لفلسطين ، وكذلك انشاء الجمعيات والنوادي الادبية الذي بدأ منذ مطالع العشرينات . على ان هذا التطور الثقافي الذي كانت تغذيه باتصال افواج من المتخرجين العرب من بيروت والقاهرة رافقته حركة ترجمة واسعة النطاق عن الفرنسية والانكليزية، ولا شك ان الارساليات الاجنبية والتي كانت كثيرة بحكم خصوصية فلسطين بالنسبة لها لعبت دورا بارزا في نشر الجو التعليمي في المدن .

ان الذي يعنينا هنا ليس الجو الثقافي العام في فلسطين خلال الثلاثينات ، على اهميته ، ولكن تعنينا على وجه التحديد الانعكاسات التحريضية التي ادى اليها من خلال علاقته مع تفاقم المأزق الاقتصادي والقومي ، ومن الممكن قياس هذه الانعكاسات ، في اشكالها ومظاهرها المختلفة والمتعددة من خلال رصد الحركة الادبية في فلسطين في تلك الفترة ، ومن خلال رصد تطور ما يمكن ان نصفه بالثقافة الشعبية ، وهو ذلك الطراز من الوعي الذي ينمو في الريف الغارق في مجاهل الامية ، ولكن في الوقت نفسه — الذي يعاني من التحدي اليومي المباشر بصورة تجعله دائم التيقظ.

انه من الواضح ان مثقفي المدن في معظمهم ، لهم منشأ طبقي مختلف عن ذلك الذي كان « للدعاة » الريفيين ، ورغم انهم كانوا ينتمون الى العائلات الاقطاعية او البورجوازية التجارية او الصغيرة في المدن ، فقد دفعتهم ظروفهم ، في مرحلة دقيقة من حياة بلادهم ، الى لعب دور فريد من نوعه ، فقد كانوا دعاة ثورة بورجوازية ولكن هذه «الثورة البورجوازية » التي كانوا هم طلائع دعوتها لم تكن موجودة وجودا ماديا حقيقيا مبلورا في حركة ذات نفوذ وذات برنامج ، كان الميدان متروكا لهيمنة الاقطاع (الذي بذل كل ما لديه من جهد لمحاولة امتصاصهم تحت قيادته وتركت هذه المحاولات بصماتها بوضوح) ولذلك استطاع هؤلاء المثقفون ان يكونوا اكثر طلاقة اذ انهم لم يكونوا مرتبطين بوجود حقيقي او قاعدة صلبة لهذه البورجوازية ولذلك بالذات كانت الحدود التي ينبغي لهم التقيد بها بحكم منشأهم الطبقي ، حدودا مائعة يسرت لهم التقدم في دعواهم اكثر من الشعراء والادباء الذين يوازونهم ، طبقيا وثقافيا،في البلاد العربية الاخرى، في الفترة ذاتها.

اما في الريف فقد كان « القوالون » ، بحكم تجوالهم واحتكاكهم بالفلاحين ، يطورون نوعا من الزجل السياسي الذي كان يعكس هموم ومطامح الفلاحين بتصاعد يتناسب مع تصاعد الصراع الذي كانت اسبابه تزداد اتساعا وعمقا ، وفي الريف يشكل الشعر الشعبي ، وكل ما يتفرع عنه ، ملمحا من ملامح الحياة وتقليدا من تقاليدها يزداد رسوخا مع الوقت ، ومن هذه الناحية يصبح لهذا الشعر الشعبي ، الذي يتبلور شكله النهائي من خلال اسهامات لا حصر لها وازمان متطاولة وصدمات اجتماعية متكررة ، سطوة تشبه سطوة الاعلام المعاصر .

ان ميكانيكية حدوث ذلك كله ، وطبيعة الصدام المركب والمعقد على صعيد الثقافات بين الدعوة الى الثورة والدعوة الى الاستكانة ، والتي تأخذ اكثر اشكالها تعقيدا وبطئا في الريف المتخلف على وجه الخصوص ، هي مسألة ليست من اختصاص هذا البحث هنا ، ولكن مع ذلك لا بد من الاشارة الى ان كثيرا من العناصر التي يبدو لاول وهلة انها ستلعب دورا سلبيا في هذا الشأن ، (مثل امام المسجد ، على سبيل المثال ، وهو اكثر الدعاة في الريف نفوذا) لا تفعل ذلك بالصورة المطلقة التي تقفز الى الخيال ، وفي فترات معينة يكون مستوى التناقض الوطني والطبقي قد بلغ حدا يستلزم حتى من امام المسجد ان يبرر مكانته، ومثل هذا العمل ، ان لم يؤد الى نتائج ايجابية مباشرة ، فهو يخلخل بالنتيجة « سطوة العصمة » التي لرجل الدين في الريف . من هذه الزاوية كان الصراع الثقافي بين الدعاة الثوريين وبين الرجعيين (في الريف) وبين الدعاة الثوريين وبين العدميين والرومانطيكيين (في المدينة) ، يكسب في كل يوم ، لمصلحة الثقافة الثورية ، مساحة جديدة . لا نعرف كاتبا او اديبا فلسطينيا واحدا في الفترة التي نحن بصددها لم يخض غمار الدعوة المناهضة للعدو الاستعماري بهذه الدرجة او تلك وعلى هذا المستوى من الوعي او ذاك ، وقلة من الشعراء